٢ ـ الشـــعر *

في صدر الاسلام وعهد بني أمية

بقلم احمد حسن الزيات

خصائص الشعر في العراق

لعل الشعر العراقي الإسلامي أصدق ما يصور حياة البادية ، وأصح ما يعبر عن نفسية العرب ؛ فانه — وإن كان كما قلنا استمراراً للشعر الجاهلي يصدر عن دوافعه ، وينبع من منابعه — أنقى جملة وأبين علة وأصح نسبة ، لقربه من عصر التدوين واتصاله بأسباب السياسة وأحداث التاريخ . وهو مظهر لتلك الحياة الدنية الأولية التي هيأها الاسلام للعرب لأول مرة ، فجعل من الأشتات وحدة ظاهرها الجماعة والالفة ، وباطنها العداوة والفرقة ؛ فهو مهاجاة بين الأفراد ، ومساجلة بين الأحزاب ، ومفاخرة بين القبائل ، ومدح للزعماء والخلفاء ؛ وهذه الموضوعات بطبيعتها تقتضي اللفظ الجزل والأسلوب الرصين والعروض الطويل والصور البدوية ، وتعتمد في الهجاء على مثالب الآباء من جبن وبخل وقلة وذلة ، وفي المدح والفخر على ذكر أيامهم الدامية الماضية وما ظفر فيها أسلافهم من الغلب والسلب . فالهجاء في هذا العهد بأنواعه الخاصة والعامة يكاد أن يكون مظهر العراق ، لتكالب القبائل المتعادية عليه ، وظهور المذاهب المتباينة فيه ، وغلبة البداوة والانفة والبطر على أهله . فشعراؤه يبتدئون به ويفتنون فيه ويعيشون عليه ، وهو ينتحل الأسباب المختلفة ، ويرتدي الأثواب المتعددة ، فيكون فردياً وقبلياً ووطنياً ودينياً وسياسياً ؛ ولكنه في الواقع إنما يصدر عن باعث واحد هو العصبية الموروثة والأحقاد القديمة

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

فقائل هذا البيت غياث بن غوث الأخطل صوت الجزيرة ولسان التغلبية وأديب النصرانية وشاعر الأموية . كان أول ما عرزم به من الشعر الهجاء ، هجا امرأة أبيه وهو صغير ، وهجا كعب بن جعيل شاعر تغلب ، فأهله وهو يافع ، وعلق به لقب الأخطل منذ شب لسفاهته . ثم مضى يقرض الشعر فيما يشجر من الخصومة بينه وبين الناس ، أو بين قبيلته وبين القبائل ، حتى كان بين يزيد بن معاوية وهو ولي العهد وبين عبد الرحمن بن حسان الانصاري تقاول وجدل ، فطلب من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار ، فتحرج أن يذم قوماً آووا رسول الله ونصروه ، وقال له : أدلك على الشاعر الفاجر الماهر (يريد الأخطل) : فهجا الأخطل الأنصار بالفلاحة واللؤم والخمر ، وفضل عليهم قريشاً في قصيدته الرائية ، وكاد يشفي من ذلك على الخطر لولا عون يزيد ؛ وبالغ الأمويون في إيثاره وإكرامه ، وأمعن هو في النفح عنهم ، فناضل الزبيريين بعد الأنصار ، وصمد إلى القبائل القيسية فهتك عنها حجاب الشرف قبيلة قبيلة بقصيدته التي مطلعها :

ألا يا اسلمي يا هندُ هندَ بني بكر وإن كان حيّانا عدىً آخر الدهر

لمناصبتها الأمويين العداء من جهة ، ولاقتحامها الجزيرة على قومه من جهة أخرى ، ثم ختم حياته بمأساة الفرزدق ومهاجاة جرير . والأخطل وإن كان شديد التمسك بنصرانيته ، على وثيق صلاته بالخلفاء ، لم يشذ عن طبيعة العرب في التدين ، فقد قال الأب لامنس في فصل كتبه عنه : « إن أثر النصرانية في دين الأخطل ضئيل ، ونصرانيته سطحية ككل العقائد الدينية عند البدو » ، فهو يدمن الخمر في حمى الدين ، ويكثر الهجاء في حمى الخليفة ، ويهاجم القبائل في حمى تغلب ؛ ولكن هجاءه كان عفيف اللفظ لا يركب فيه متن الشطط ولا يتجاوز به حدود الخلق

وأبو فراس همام بن غالب الفرزدق الدارمي ثم التميمي نشأ كذلك بالبصرة على قول الهجاء مع شرف أسرته وغنى قبيلته وعزة نفسه ؛ فكان يهجو بني قومه لحدة طبعه وشراسة خلقه ، فيشكونه إلى أبيه فيضربه ؛ ثم لج في هجاء الناس حتى استعدوا عليه زياداً والي العراق لمعاوية ، فطلبه ففر منه في مدن العراق وقبائله ، ثم لجأ إلى المدينة واستجار بواليها سعيد بن العاص من زياد فأجاره ؛ فلما مات زياد عاد الشاعر الى وطنه فساهم فيما وقع

* من الطبعة الجديدة لكتاب تاريخ الأدب العربي الذي صدر حديثا

فيه من حروب وفتن بعد موت معاوية ويزيد ، حتى بني بهاجاة جرير فشغلت فكره وملأت عمره وصقلت شعره ، وظلت هذه الهاجاة أربعين سنة ونيفاً كان منها للناس مشغلة ، وللسواس مهزلة ، وللأدب العربي ثروة ضخمة من الشعر لا تخلو على سفاهتها وبذاءتها من حكمة . وكان جرير بن عطية الخطفى التميمي قد قال الشعر كصاحبيه في الحداثة الباكرة ، وقاله مثلهما في الهجاء ، ولكنه بدأ بالرجز على نحو ما يكون من الرعاة وهو منهم . وكان خمول عشيرته وضعة أسرته وفقر أبيه وحدّة خلقه من العوامل التي ساعدت الطبع على نبوغه في الشعر وتفوقه في الهجاء ؛ وكان أول من نازله وألجمه غسان السليطي حين هجا قومه ، فاستغاث السليطي بالبعيث فأغاثه وهجا جريراً ، فنقض جرير قوله بالهجاء اللاذع ، فناضل عنه الفرزدق لموجدة في نفسه على جرير ، وتهاجى الشاعران التميميان من أجل ذلك . وفضّل الأخطلُ الفرزدقَ على جرير إما لدفاعه عن قيس ، وإما لرشوة محمد بن عمير إياه ، فهجاه جرير ، ثم نبحه الهجاء من كل مكان حتى نصب له من الأقران ثمانون شاعراً ظاهر عليهم جميعاً إلا الفرزدق والأخطل فانهما ثبتا له ونازعاه الغلبة . وانشعب الناس في أمر جرير والفرزدق شعبتين تناصر كل منهما أحد الشاعرين ؛ وكان بين الفرزدقيين والجريريين ما بين العلويين والأمويين ، يطلب كل منهم الغلبة لصاحبه بالدعاية والنكاية والرغبة والرهبة والحلف ، يقوم الأولون بالمربد والآخرون بمقبرة بني حصين ، وقد وقف الشاعران كلٌّ بين أتباعه وأشياعه ينشدهم شعره وهم يكتبونه ، والرواة ينشرونه ، والأدباء والأمراء يتناولون ما يروى بالموازنة والنقد والحكم ، والأنصارُ يحاولون رشوة الشعراء واستمالة العلماء ليحكموا لصاحبهم على خصمه ؛ فقد روى الأغاني أن أحدهم تبرع بأربعة آلاف درهم وبفرس لمن يفضل الفرزدق على جرير . وليس أدل على اهتمام الناس بأمرهما واختلافهم في الحكم على شعرهما من أن يتهادن الجيشان المتقاتلان ساعة ليحكم أحد الخوارج الأدباء بين رجلين من رجال المهلب تنازعا في أمر جرير والفرزدق ، فقد ذكر ابن سلام أن رجلين تنازعا في عسكر المهلب في جرير والفرزدق وهو بازاء الخوارج ، فصارا إليه فقال لا أقول فيهما شيئاً ، وكره أن يعرض نفسه لشرهما ، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما : عبيد بن هلال ، وهو يومئذ في عسكر قطري بن الفجاءة ، فأتيا فوقفا حيال المعسكر فدعواه فخرج يجر رمحه ، وظن أنه دعي إلى المبارزة ، فقالا له : آلفرزدق أشعر أم جرير ؟ فقال : عليكما وعليهما لعنة الله ! فقالا : نحب أن تخبرنا ثم نصير إلى ما تريد ، فقال من يقول

وطوى القيادُ مع الطراد بطونها ... طي التّجار بحضرموت بُرُودا

قالا : جرير . قال : هو أشعرهما

وهناك طائفة أخرى من شعراء العراق كعبيد الراعي وأبي النجم العجلي والراجز اتخذوا من الشعر ظُفُراً ونابا مزقوا بهما الأعراض وأشاعوا هُجُر القول في الناس ، ولكن أحدهم لم يبلغ من سطوة الشعر ونباهة الذكر ما بلغ جرير والفرزدق والأخطل ، لأنهم كما قال أبو عبيدة : « أعطوا حظاً من الشعر لم يعطَه أحد في الاسلام : مدحوا قوماً فرفعوهم ، وذموا قوماً فوضعوهم ، وهجاهم قوم فردوا عليهم فأنهضوهم ، وهجاهم آخرون فرغبوا بأنفسهم عن جوابهم فأسقطوهم »

مذهبهم في الهجاء

مذهبهم في الهجاء هو المذهب المتبع والطراز الغالب ؛ على أنهم يتفاوتون فيه تفاوتهم في الطبقة والبيئة والطبع

فالأخطل سيد في قومه ، كريم في نسبه ، نبيل في نفسه ، يعاقر الخمر ويجالس الملوك ويحترم الدين ويحتمل في سبيله ضرب الأسقف وأذى السجن وإن كان لا يتعبد ولا يتزهد . ومن أجل ذلك كانت لغته في الهجاء كما ذكرنا من قبل لغة الخاصة ، لا يسف الى القبيح ولا يستعين بالمخازي ، وإنما يهاجم القرن في صفات الرجولة فينفي عنه الكرم واليأس والمجد والصدق كقوله في تيم :

وكنت إذا لقيت عبيد تيم ... وتيما قلت أيهما العبيد !

لئيم العالمين يسود تيماً ... وسيدهم وإن كرهوا مسود

وكقوله في كليب بن يربوع :

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم ... إذا جرى فيهم المزّاء والسكر

قوم تناهت إليهم كل مخزية ... وكل فاحشة سُبّت بها مضر

الآكلون خبيث الزاد وحدهمُ ... والسائلون بظهر الغيب ما الخبر

وأقسم المجد حقاً لا يحالفهم ... حتى يحالف بطن الراحة الشعر

ولعل أفحش هجائه قوله فى قوم جرير :

قوم إذا استنبح الضيفان كلبهم ... قالوا لأمهم بولى على النار

فتمنع البول شحاً أن تجود به ... ولا تجود به إلا بمقـــدار

والخبز كالعنبر الهندى عندهمُ ... والقمح خمسون أردباً بدينار

فترى أنه حتى فى إقذاعه وإبجاعه لا يتدلى الى ذكر المثالب الخاسة والمعايب القردية ، وإنما يهاجم قبيلة الخصم كلها فيقايس بينها وبين قبيلته فى السمو الى المعالى والسبق الى الغايات ، وفى ذلك يجد بلاغه ومدده ، فلا يضطر اضطرار جرير الى ذكر الصغائر التماساً للغلبة الدنيئة من أقرب طريق . انظر الى قوله لجرير :

يا ابن المراغة إن عمّى اللذا ... قتلا الملوك وفككا الأغلالا

وأخوهم السفاح ظمّأ خيله ... حتى وردن جبى الكلاب نهالا

فانعق بضأنك يا جرير فانما ... منتك نفسك فى الخلاء ضلالا

منتك نفسك أن تكون كدارم ... أو أن توازى حاجباً وعقالا

وإلى قوله له :

ولقد شددت على المراغة مرجها ... حتى نزعت وأنت غير مجيد

وعصرت نطفتها لتدرك دارماً ... هيهات من أمل عليك بعيد

وإذا تعاظمت الأمور لدارم ... طأطأت رأسك عن قبائل سيد

وإذا عددت بيوت قومك لم تجد ... بيتاً كبيت عطارد ولبيد

تجد أن هجاءه أقرب ما يكون إلى المناقرة والفخر . ومن الواضح أن هذا الهجاء العفيف المترفع وإن أمضّ لا يجرى مع هجاء جرير فى ميدان ، ولا يستوى وإياه عند العامة فى ميزان ، فكيف إذا اجتمع إلى ذلك خمود الشيخوخة فى الأخطل وحِدّة الشبيبة فى جرير ؟ إن جريراً نفسه قد عال وناء خصمه عنه فى آخر الشوط بكبر سنه ، فقد قال : « أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركته وله نابان لأكلنى » . وقال فى قصيدته النونية التى هجا بها الأخطل على أثر تفضيله الفرزدق عليه :

جاريت مُطّلع الرهان بنابهِ ... رَوْقٌ شبيبته وعمرك فان

وإذا استثنينا هجاء الأخطل لجرير وجدنا أشهر أهاجيه إنما قالها فى أغراض قومية أو سياسية . ومن تلك الأهاجى المأثورة قصيدتان تلخصان مذهبه وتصوران فنه : الأولى فى هجاء القبائل القيسية ومطلعها :

ألا يا اسلمى يا هند هند بنى بكر ... وإن كان حيّانا عِدىّ آخر الدهر

والأخرى فى مدح عبد الملك بن مروان وذم خصومه ومطلعها :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا ... وأزعجتهم نوى فى صرفها غِيَرُ

ومنها :

بنى أمية إنى ناصح لكم ... فلا يبيتن منكم آمنا زُفَر

قال مشهده كفر وغائلة ... وما يُغيَّب من أخلاقه وعَر

إن العداوة تلقاها وإن كمنت ... كالسُّر يكمن حينا ثم ينتشر

بنى أمية قد فاضلت دونكم ... أبناء قوم هم آووا وهم نصروا

وقيس عيلان حتى أقبلوا رُقُصاً ... فبايعوك جهاراً بعد ما كفروا

ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم ... وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

والأخطل لنصرانيته لم يستطع أن يتخذ من الاسلام سببا للفخر ولا مادة للهجاء ، فاكتفى بذكر مناقب آبائه ومثالب أعدائه ، على أنه يستغل أحيانا بعض ما أنكر الاسلام فيهجو به وإن كان هو يستبيحه ، كقوله فى الأنصار يرميهم بشرب الخمر :

قوم إذا هدر العصير رأيتهم ... حمراً عيونهمُ من السكار

وكقوله فى كليب بن يربوع :

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم ... إذا جرت فيهمُ المزّاء والسكر

يتبع

النبات

الدليل العراقى

موسوعة سنوية عن المملكة العراقية والبلاد العربية المجاورة

تصدره باللغتين العربية والانجليزية

محل ذكور للطبع والنشر

تحت إشراف

وزارة الداخلية العراقية

الإدارة : شارع المأمون ٣٢/١١

بغداد - العراق